التنمية الاقتصادية لبلدان الخليج العربى
فى العصر العباسى

دكتور ابراهيم احمد العدوى

صارت الدولة العباسية فى حقيقة جوهرها — منذ تأسيس بغداد — دولة خليج عربى ، وجزء لا يتجزأ من عالمه وأهله[1] . وقد ورثت هذه الدولة عظمة دول الخليج القديمة التى سبق أن أسسها الآشوريون والكلدانيون ، وأخيراً الفرس الساسانيون وعرف العباسيون من هذا التراث الماثل الذى آل إليهم ولاعتمادهم بصفة خاصة على الفرس فى إدارة دولتهم أمثل السبل للنهوض بأحوال الخليج العربى وتنمية هذا المصدر الأساسى من مصادر الدخل فى دولتهم . وكانت الحقيقة الهامة التى وقف عليها العباسيون من تراث الماضى أن العقبة الخطيرة التى واجهت دول الخليج القديمة والتى حالت دون سلامتها هو فشلها فى تنمية موارد تلك البلاد بسبب التنافر الذى سيطر على سواحل الخليج الثلاثة والتناحر الذى ساد سكان تلك السواحل من أجل الاستئثار بأكبر قدر ممكن من ثروات الخليج لأنفسهم دون مراعاة للصالح العام[1] .

---

(١) كان لتأسيس بغداد على دجلة الذى تجرى مياهه إلى الخليج العربى أثر فى ربط هذه العاصمة بتجارة الشرق الاقصى فى الهند والصين التى تأتى إلى الخليج ، فضلا عن تدفق سلع الجهات المجاورة عليها . وعبر عن ذلك مؤسس بغداد الخليفة أبو جعفر المنصور ، فقال « هذه دجلة ، وليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا منها كل ما فى البحر » ثم أضاف هذا الخليفة أيضا عن بغداد موضحا أنها « مشرعة للدنيا » كل ما يأتى دجلة من واسط والبصرة والإبلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فاليها تلقى وبها ترسى » .

انظر : الطبرى، تاريخ الرسل والملوك (المطبعة الحسينية) ج ٩ ، ص ٢٣٨ ، اليعقوبى، كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢ ، ص ٢٣٧) .

(٢) يعتبر الهجوم الذى قام به أكابرة الفرس على البحرين والشاطىء العربى للخليج زمن كسرى المشهور باسم سابور ذى الاكتاف نموذجا لهذا الطمع الذى اساء إلى اقتصاديات الخليج العربى قبل الاسلام .

واتجهت سياسة العباسيين منذ أيامهم الأولى إلى العمل على تخليص بلدان الخليج العربى من تلك الروح العدائية والقضاء على رواسبها كذلك بين السكان اعتمدت تلك السياسة العباسية الجديدة على تنمية الموارد الاقتصادية لبلدان الخليج،ثم تنسيق التكامل الاقتصادى بينها بما يهيىء لكل بلد من تفجير طاقاتها الكامنة بشكل يحقق لأهلها أولا الرفاهية والطمأنينة، ويمكن الدولة العباسية ثانياً من السيادة،وأخذ النشاط التجارى للخليج العربى يستند لأول مرة فى تاريخه ـــ بفضل سياسة العباسيين ـــ إلى زراعة واسعة وصناعة راقية أسهمت فيها كل بلد من البلدان حسب إمكانياتها وقدراتها . وغدا طريق الخليج على عهد العباسيين منطقة جذب كبرى للتجارة العالمية ، تجد فى موارد بلدانه ما يغذيها ويوسع مجالها.فالتجارة فى كل مكان وزمان ليست إلا نتاجا لما تفيض بة ميادين الزراعة من محاصيل وما تخرجه ميادين الصناعة من سلع وأدوات على اختلاف الأشكال والأنواع .

واستلزمت تنمية الموارد الاقتصادية لبلدان الخليج العربى عودة العباسيين إلى التنظيم الإدارى الساسانى الذى جعل من المقاطعات البحرية المطلة على الخليج وحدات لها كيانها المستقل عن الجهات الداخلية المجاورة لها(١) . واشتملت تلك المقاطعات البحرية على بلاد العراق التى يجرى فيها القسم الأوسط من دجلة والفرات ثم التقائهما معا فى شط العرب إلى الخليج العربى. وكذلك مقاطعتى عمان والبحرين على الشاطىء العربى للخليج ، وأخيراً مقاطعات هوزتان وفارس وكرمان على الشاطىء الفارسى للخليج . وكانت معالم هذه المقاطعات قد تعرضت بعد الفتح الاسلامى وطوال عهد الأمويين للتغيير والتبديل حسب مقتضيات الفتوح وسياسة الأمويين فى دمشق. فكانت عمان والبحرين تنضم أحيانا إلى اليمامة ونجد بوسط شبه الجزيرة العربية،وأحيانا

---

(١) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية(ترجمة كوركيس عواد ، بغداد ١٩٠٤ ص١٤)
Wilson, The Pesian (Gulf London 1956) .

كان والى الكوفة يشرف على تلك المقاطعات ومعها المقاطعات الفارسية حتى بلاد ماوراء النهر ، ولا سيما زمن الفتن التى واجهت الأمويين فى العراق، وأيام الفتوحات الأموية فى المشرق أيضا(١) .

وحدث العباسيون منذ أيامهم الأولى معالم النظام الإدارى لبلدان الخليج العربى وذلك بالعودة إلى نظام المقاطعات البحرية الذى ساد أيام الفرس الساسانيين والاحتفاظ كذلك بأسمائها وأقسامها المحلية ، التى اتفقت مظاهرها ومعالمها مع البيئة الجغرافية لعالم الخليج العربى . فظلت كل مقاطعة تنقسم طبقا للنظام الفارسى إلى كور أو أساتين وكل كورة أو أستان إلى رساتين وكل رستان إلى طساسيج وشرح الجغرافى ياقوت هذه المصطلحات الإدارية قائلا : الكورة إسم فارسى بحت يقع على قسم من أقسام الاستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها إسما للاستان. . . . . فالكورة والاستان واحد. . . .(٢) .

« والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع إسمها ذلك إسم الكورة كقولهم . . نهر الملك (بالعراق) فانه نهر عظيم ، مخرجه من الفرات ويصب فى دجلة ، عليه تمر ثلاثمائة قرية، ويقال لذلك جميعه نهر الملك . . »(٣) وانتقل ياقوت إلى شرح معنى الاستان قائلا إنه فى الأصل يعنى المأوى ، ثم صار الاستان والكورة شيئاً واحداً . وأوضح أن الاستان ينقسم بدوره إلى الرساتين ، وينقسم الرستان إلى الطساسيج وينقسم كل طسوج إلى عدد من القرى . .(٤)

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ١٤٩ .
(٢) حتى ، تاريخ العرب (مول — بيروت ١٩٦٥ ، ج ٢١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .
(٣) ياقوت ، معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) ج ١ ، ص ٣٧ .
(٤) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٦

« وأما الرستان : فهو .. مشتق من دوذهفستا .. ودوذه إسم للسطر والصف والسماط ، وفستا إسم للحال .. والمعنى أنه على التسطير والنظام . قلت: الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس إنهم يعنون بالرستان كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد وهو أخص من الكورة والاستان . »(١)

« وأما الطسوج .. فهو أخص وأقل من من الكورة والرستان ، والاستان ، كأنه جزء من أجزاء الكورة .. لأن الكورة قد تشتمل على عدة طساسيج ، وهى لفظة فارسية أصلها تسو ، فعربت بقلب التاء طاء ، وزيادة الجيم فى آخرها ، وزيد فى تعريبها بجمعها على طساسيج . وأكثر ما تستعمل هذه اللفظة فى سواد العراق وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجا ، أضيف كل طسوج إلى إسم »(٢) .

ومهد العباسيون عند احتفاظهم بالنظام الادارى الساسانى لبلدان الخليج العربى على تطهيره فى نفس الوقت من عيوبه القديمة التى تجلت فى التفرقة بين سواحله وسكانها . ونجح العباسيون فى ذلك بفضل اتباعهم النظام المركزى منذ أيامهم الأولى والذى يستهدف مراقبة العمال والاشراف الدقيق على أحوال البلاد. وساعد العباسيين على دعم هذه الخطوة انتظام ديوان البريد ، الذى اهتم به الخليفة أبو جعفر المنصور اهتماما عظيما ، واتخذه أداة لربطه بسائر أرجاء الدولة ، ومعرفة أحوال رعيته وللمبادرة إلى رفع أى حيف أو غبن يقع عليها . وعبر الخليفة أبو جعفر المنصور عن الطابع الجديد الذى استهدفه من الادارة على عهده قائلا :

---

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٧
(٢) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٨

« ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة معز لايكون على بابي أعف عنهم فقيل له يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لايصلح إلا لهم ، كما أن السرير لايصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى ، وهى: اما أحدهم فقاض لاتأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولايظلم الرعية فإنى من ظلمها غنى . والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه ، قيل له من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى غير هؤلاء على الصحة » (١) .

ونالت بلدان الخليج العربى قدرا كبيرا من هذه العناية الادارية العباسية ، فتولى إدارة المدن الكبرى فيها عمال وفق النظام الذى تحدث عنه الخليفة المنصور ، مع آخرين تتفق مهامهم مع طبيعة تلك النواحى التجارية . وكان من هؤلاء العمال الكبار: القاضى وصاحب البريدوالبندار وصاحب المعونة(٢) وساد تلك البلدان أيضا الرخاء الاقتصادى الذى سهر الخليفة المنصور على تحقيقه إذ حرص على مراقبة الأسعار باعتبارها عنوانا على الأحوال الاقتصادية والعمل على عدم ارتفاعها ضمانا لاستقرار الناس وتوفيرا لأسباب العيش الكريم لهم . فكانت ولاة البريد فى الآفاق كلها « يكتبون إلى المنصور أيام خلافته ، فى كل يوم : بسعر القمح والحبوب والادم ، وبسعر كل مأكول وبكل مايقضى به القاضى فى نواحيهم ، وبما يعمل الوالى ، وبما يرد بيت المال ، وكل حدث .. فإذا أوردت كتبهم نظر فيها ، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذلك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقته حتى يعود سعره ذلك إلى حاله »(٣) .

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ،ص٢٩٧

(٢) متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (ترجمة أبو ريده) (١٩٥٧) ج ٢ ، ٢٧٣ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣١٤

وبلغ من انتظام البريد فى عهـــد أبى جعفر المنصور أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم ، فاذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا اليه بما جرى فى الليل من أمور (١) . واستطاع الخليفة أن يحقق هدفه الاقتصادى وهو توفير الرخاء للناس ، حتى قال أحد معاصريه « رأيت فى زمـن أبى جعفر المنصور كبشا بدرهم ، وحملا بأربعة دوانق ، والتمر ستين رطلا بدرهم ورايت ستة عشر رطلا بدرهم . والسمن ثمانية أرطال بدرهم . »(٢)

ونقلت طرق البريد المتفرعة من بغداد إلى سائر بلدان الخليج العربى صـورة زاهرة عن هذا الرخاء الاقتصادى الذى ساد تلك الأرجاء ، وهزم رجال الادارة هناك إذ دأب العباسيون على تعيين كبار العمال فى بلدان الخليج من أبنـاء البيت العباسى نفسه أو من كبار رجالات الدولة المشهود لهم بالولاء للبيت العباسى والقدرة على تحقيق سياسته . وغدت بلدان الخليج العربى تشعر بالترابط والمودة لأول مرة فى تاريخها ، حتى صار الخليج العربى بحيرة عباسيه ينعم أهله فى ظل الادارة العباسية بالطمأنينة ويأتيهم رزقهم رغدا .

ووصف الجغرافيون والرحالة المسلمون هذه الروح الجديدة التى سرت فى بلدان الخليج العربى ، وما اقترن بها من تنمية اقتصادية واسعة النطاق إذ جعل النظام الادارى العباسى من مقطاعات الخليج العربى وحدة مترابطة أشبه بالطائر له صدر وجناحان . أما الصدر فهو مقاطعة العراق ، والجناح الأيمن ضم عمـــان والبحرين التى صارت مقاطعة واحدة حاضرتها البصرة فى العراق أما الجناح الأيسر فانتظم مقاطعات الساحل الفارسى للخليج والتى ظلت تحمل نفس أسمائها وتعدادها القديم وهى : خوزستان وفارس ثم كرمان .

---

(١) Von Kremer, Orient under the Caliphs, P. 233

(٢) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ج١ ، ص٨٠ ؛ الجهشيارى ، الوزراء والكتاب (تحقيق السقا) ، ص١١٧

أولا : العراق أو السواد :

انتظم العراق فى ظـل النظام الإدارى للدولة العباسية نفس القاطعة البحرية التى أنشأها الفرس الساسانيون حين نقلوا عاصمتهم إلى المدائن من أجل السيطرة على طول الخليج العربى وعالمه (١) . فكانت بلاد العراق تعنى نفس اشتقاقها اللغوى من الملوسة وهو الأراضى الواطئة (٢) إذ جرى سهل العراق الفسيح امتـــداد طبيعيا لحوض الخليج العربى نحو الشمال على شكل مستطيل منبسط ينحصر بين جبـــال زاجروس وكروستان من جهة الشرق وبين الهضبة الصحراوية من جهة الغرب غير أن العباسيين فضلوا أخلاق (السواد) على بلاد العراق إمعانا فى التمييز بين هـــذا الاقليم الخصيب الحافل بانحدار مجرى دجلة والفرات وفروعها المديدة نحو الصحراء الممتدة فى كل من بلاد العرب وجنوب الشام (٣) .

ووضع العباسيون لعاصمتهم بغداد نظام إداريا يدعم روابطها مع أرض السواد باعتبارها جزء من عالم الخليج العربى . ذلك أن بغداد كانت بفضل شبكة الملاحة النهرية التى أقامها العباسيون تطل بوجهها نحو الخليج العربى وتعتبر مدينة من أهم مدنه ، ومعلما كبيراً فى حياتة الاقتصادية . ولذا حرص العباسيون فى نظامهم الإدارى على جعل بغداد إحدى حواضر إقليم السواد ، فضلا عن مكانتها باعتبارها مقر الخلافة وعاصمة الدولة العباسية . فكان القسم الشرقى من بغداد حيث قصور الخلافة تحت إشراف الخلفاء أنفسهم : أما باقى أرجاء العاصمة فكانت تتبع إداريا طسوج بادوريا (٤) ، أشهر نواحى العراق خصوبة وزدهارا بالزراعة .

---

(١) Wilson . op cit. 60.
(٢) حتى : تاريخ العرب — مطول (بيروت ١٩٦٥) ج ١ ، ص ٢١٠
(٣) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩ ، ٦٢٥) .
(٤) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٢٤٢ ، متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٧٣

واقتضى هذا الوضع الإدارى لبغداد ، فضلا عن نظرة العباسيين إلى العراق باعتباره أرض السواد أن تكون الزراعة والثروة الزراعية موضع الاهتمام الرئيسى للخلفاء وعمالهم . واستطاع العباسيون تنمية الزراعة بالعراق عن طريقين ، أولهما تنظيم وسائل الرى والثانى توسيع رقعة الأراضى الصالحة للزراعة . أما عن الأولى فكانت مجارى دجلة والفرات لا تطلب إلا شق الترع والقنوات لتوصيل المياه إلى الأراضى الزراعية . وتولى دجلة رى مساحات واسعة من الجانب الشرقى للبلاد وتحويلها إلى حقول لزراعة الحنطة والشعير والأرز . وتولى نهر الفرات رى معظم أراضى السواد ومساهمتها فى الميدان الزراعى بانتاج حاصلات جديدة ، مثل العلس وهو نوع من الحبوب والجاروسى وهو نوع من الدخن[1] .

وتتطلب العامل الثانى وهو توسيع رقعة الأراضى الزراعية صيانة السدود والمسنيات والبثوق . وكان هذا الأمر شاقا ، لأن أرض السواد تعرضت كثيراً للفيضانات وانسياح الماء فى البطائح وتخريب الأراضى الزراعية وكانت المحافظة على السدود تتطلب بدورها سهرا مستمرا لأنها كانت شىء من القصب والتراب الذى يعجز أحيانا عن مقاومة اندفاع الماء . وكان يكفى أن ثغرة يسيرة على إحدى نواحى السد حتى يتولى الماء الهدم والتخريب فربما أفسد فى ساعة تعب سنة أو نحوها [2] وخصص العباسيون لهذا الغرض طائفة من العمال قائمة بذاتها ، لا مهمة لها إلا حماية الجسور وتوفير السلامة للاراضى الزراعية . وإلى جانب ذلك أقيمت قناطر عديدة على مجارى الأنهار لتنظيم توزيع المياه ومنعها من تخريب الأراضى الزراعية .

---

(١) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ٢٩٧ وصالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة (بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٨٦) .

(٢) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

وحرص العباسيون على تخفيف الأعباء عن كاهل الفلاحين وإتاحة السبل أمامهم للعمل فى طمأنينة وعدالة . وكان من أهم الخطوات التى قام بها العباسيون فى سلك هذا السبيل إلغاء «نظام المساحة» الذى كان معمولا به منذ عهد عمر بن الخطاب — بل من قبل ذلك زمن الفرس الساسانيين وتطبيق « نظام المقاسه [1]» ومعنى نظام المساحة أن يكون هناك خراج مقرر معين على مساحة محددة من الأرض تجتبيه الدولة فى كل عام — جملة أو متجزأ — دون نظر إلى مايحدث من اختلاف كمية المحصول أو اعتبارات أخرى .. أما نظام المقاسة فهو أن تتقاسم الدولة والناس ماينتج من محصول بنسبة معينة : الثلث مثلا للدولة والثلثين للمزارعين دون اعتبار للمساحة . فيتغير الخراج بطبيعة الحال بتغير المحصول الذى ينتج [2] وجاء نظام المقاسة فائدة للفلاحين وتخفيفا للاجحاف عنهم . وقد طبق هذا النظام على جميع ماتنتجه العراق ليس فقط من الحبوب ، بل وعلى التمور والفاكهة أيضا .

وكان يزرع فى العراق أنواع كثيرة من التمور ونجاحه فى البصرة . وترتب على ذلك أن صارت العراق تحفل بالحبوب والفاكهة ، وغدت تجارة المواد الغذائية من أهم مصادر الثروة فى البلاد فصدرت العراق الحبوب ونجاحه إلى جهات الساحل العربى للخليج والجهات الداخلية من شبة الجزيرة العربية التى تفتقر إلى تلك المنتجات الهامة. واشتهرت بعض مدن العراق بأنواع خاصة من التجارة تتفق مع منتجاتها الزراعية، ومن ذلك الكوفة التى اشتغل أهلها بتجارة الزيوت المستخرجة من السمسم .[3]

صحب الانتاج الزراعى تقدم صناعى كذلك ، فاشتهرت بلاد العراق بصناعة المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية حتى وصفها الجغرافيون والرحالة المسلمون

---

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية (مصر ١٢٩٨ هـ) ص ١٦٨ .
(٢) ضياء الدين الريس ، الخراج (١٩٦٩ ، ص ٤٣٠) .
(٣) متز ، نفس المرجع ، ج ٢، ص ٣٩٠ ، صالح العلى ، نفس المرجع ، ص ١٩٥، ١٩٦

بأنها أكثر الاقطار الإسلامية «صوفا وقزا »(٥) وكانت البصرة أهم مراكز تلك الصناعة وانتاج أنواع جيدة من الخز والبز . وأدى الازدهار الزراعى والتقدم الزراعى إلى قيام تجارة رائجة بالعراق ومع جيرانه كذلك . وسرعان ما ظهرت الحاجة إلى وضع كثير من التشريعات لتنظيم تلك التجارة وحمايتها من جشع التجار . إذ كان أولئك التجار يتلاعبون أحيانا فى تجارة الحبوب ، وذلك بشراء كميات كبيرة وتخزينها انتظاراً لارتفاع الأسعار ثم بيعها واضطرت السلطات العباسية إلى إغراق الأسواق بمقادير من الحنطة للقضاء على مثل هذا التلاعب وأصاب تاجران من تجار الحبوب على عهد المامون خسائر فادحة أمام يقظة الإدارة ورقابتها الفعالة . فبعد أن توقعا ربحا مقداره عشرة آلاف درهم انخفض سعر الحبوب وخسرا ستة آلاف درهم (١).

ووضعت السلطات العباسية الأسواق تحت مراقبة دقيقة فبعد غروب الشمس تنتهى الحركة فى الأسواق ، ويحمل التجار سلعهم إلى المخازن وتخلو الأسواق من الناس عدا الحراس . وجلس فى الأسواق رجل يسمى « القاقد » حرفته تمييز الدراهم وفحصها واكتشاف الزائفة منها وطبقت السلطات العباسية أيضاً الشريعة الإسلامية فى المعاملات المالية بما يقضى على الربا وغيرة من وسائل التحايل حتى صار البائع والمشترى يتعاملان فى ثقة وطمانينة . وحمل الفقهاء لواء البصرة العباسيين باى خلل يصيب النواحى الاقتصادية وبخاصة عن مساوىء جباة الضرائب وكان أولئك الجباة يتخذون أماكنهم على طرق التجارة النهرية والبرية العديدة بالعراق ، وينصبون حبالا بين صفتى دجلة والفرات ويوقفون السفن وتحصيل الضرائب منها حسبما تحمله

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص١٤٥.
(٢) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

من تجارة . وكانت السلطات العباسية تبادر إلى منع أى أذى ينزل بالتجار أو الناس ومراقبة الجباة مراقبة شديدة (١)

ونعمت بلاد العراق زمن العباسيين بذلك برفاهيـة جعلت وارداتها تزيد على صادراتها ، فكان أهل العراق مثلا يستهلكون كل إنتاجهم من التمر عدا أنواع جيدة تصدر إلى الخارج . وحملت هذه الظاهرة التجارية بلاد العراق على أن تدعم صلاتها مع بلدان الخليج العربى ، باعتبارها أقرب الأرجاء إليها ولتحصل منها على ما يسد حاجاتها ويوفر أسباب الهناء لسكانها . وبدأت حركة التبادل التجارى فى الخليج العربى تلقى قوة دافعة جديدة من مقر العباسيين الزاهر فى بلاد العراق .

ثانياً : ولاية الساحل العربى للخليج :

جعل العباسيون عمان والبحرين ولاية واحدة تشمل الساحل العربى للخليج ، وحاضرتها البصرة فى أرض العراق (٢) . وكان هـذا التنظيم يتمشى مع سياسة العباسيين فى الحكم المركزى ، كما يتفق أيضـاً مع الأوضاع الجغرافية والاقتصادية للساحل العربى للخليج . فكانت البحرين كما وصفها ياقوت « اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان » (٤) . وأوضح الجغرافى الاصطخرى طبيعة هذا الموقع القائم بنفسه من شـبه الجزيرة العربية فقال : « وأما البحرين فإنها من ناحية نجد ومدينتها هجر ، وهى أكثر تمورا ، إلا أنها ليست من الحجاز وهى على شط بحر فارس . . . ولها قرى كثيرة وقبائل من مضر ذوو عدد قد احتفوها

---

(١) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢) الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى (بيروت ١٩٦٩) ص ٧٠ ، صالح العلى ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٣) حتى ، نفس المراجع ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

(٤) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

(٥) الاصطخرى ، المسالك والممالك (تحقيق د . أحمد جابر عبد العال ١٩٦١ ص ٢٣

وأكد الجغرافى ابن حوقل صورة البحرين قائلا : أنها تشمل على مدن ونواحى أهمها « هجر والاحساء والقطيف والعقير وبشة والخرج وأوال » (٥) .

ويتضح من أوصاف الجغرافيين المسلمين أن مدن البحرين ليست إلا أقسام لهذا الساحل اشتهرت بأسماء المدن الكبرى فيها . فهجـــر كانت القاطعة الرئيسية ، واشتملت على عدة مدن صغيرة وقرى ، اشتهرت باسم أهمها وهى هجر . وكذلك الاحساء اشتملت على امتداد من الأرض على الساحل العـربى للخليج ، قامت به مدن كان من أشهرها الاحساء نفسها التى فرضت اسمها على تلك المنطقة . وعلى هذا النحو جرت أسماء باقى النـــواحى التى اشتملت عليها بلاد البحرين طبقاً لتعريف الجغرافيين المسلمين . ويبدو أن السبب فى الجمع أو الخلط بين أسماء المدن والجهات المجاورة لها ، هو أن تلك الأرجاء من الساحل العربى كانت مهبط القبائل من وسط شبه الجزيرة العربية طلباً للاقامة بها والبحث عن أسباب العيش على ضفاف الخليج وغدت أماكن الاستقرار تحمل أسماء لا تلبث أن يتسع مدلولها إلى ما جاورها من النواحى ، وأحياناً يبقى الاسم علـــماً على المدينة التى تفوقت على ما عداها من المدن والقرى .

وقام إلى جوار هذا الساحل عدة جزر هى التى علق بها إلى اليوم اسم البحرين وكانت أشهر هذه الجزر هى أوال بالقرب من القطيف ، وهى فى البحر «على مسيرة يوم للريح الطيب عن القطيف . . . وبها كروم كثيرة للغـــاية ونخيل وأترج ومراعى(١) » . واشترك فى هذه الظاهرة من الحياة النباتية سائر بلدان البحرين بمعناها عنـد الجغرافيين المسلمين . فكانت جهات الاحساء نظراً لطبيعتها تحتوى

---

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

على موارد من المياه الجوفية تساعد على قيام نوع من الزراعة البسيطة وبخاصة فى الحبوب إلى جانب النخيل . واشتهرت مقاطعة هجـــر بانتاجها فى التمر حتى صار يضرب بها المثل المشهور « كناقل التمر إلى هجر » (١) .

وارتبطت بلاد عمان ارتباطا وثيقا بالبحرين بسبب موقعها الجغرافى ، إذ كانت أشبه بجزيرة تحيط بها الصحراء الشهيرة بالربع الخالى من جانب والبحر من جانب آخر ، وهو الأمر الذى جعلها تطل على الخليج العربى وتتلمس فيه بدورها أسباب العيش لأهلها ، ووصف الاصطخرى هـذا الموقع الجغرافى لعمان وطبيعة الحياة فيها فقال : « عمان مستقلة بأهلها ، وهى كثيرة النخيـل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك ، وقصبتها صحار وهى على البحر » (٢) . وقـد أشار الجغرافيون القدامى من اليونان والرومان إلى أن عمان كانت مدلولا واسعاً ، يمتد غرباً إلى اليمن وشمالا إلى البحرين (٣) . ويبدو أن تلك الأوصاف القديمة هى دلالة على الاتصال البحرى لعمان بكل من اليمن والخليج العربى ، حيث كان البحر هو السبيل الوحيد لاتصالها بالعالم الخارجى وميدان لنشاط أهلها .

وكان العباسيون بذلك موفقين فى ضم كل من عمان والبحرين واعتبارهما ولاية واحدة عاصمتها البصرة . وكانت وسائل الاتصال ميسورة بين البصرة وكل من البحرين وعمـان بحراً وبراً ، وكذلك المحطات على امتـــداد تلك الطرق ، والزمن الذى تقطع فيه تلك المسافات أيضاً . ومن ثم علا شأن هذه الولاية الجديدة بالنسبة لدورها فى شبكة المواصلات البحرية والبرية على امتداد طـريق الخليج العربى . فكانت المدن التى عددها الجغرافيون المسلمون على البحرين وجزرها مراكز

---

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٢٧ .
(٣) جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٦٨) ، ج ١ ، ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

هامة للسفن وتموينها، فضلا عن اشرافها على نهاية طرق القوافل البرية عبر الجزيرة العربية، ومن أمثلة ذلك جزيرة أوال نفسها ، وميناء القطيف على ساحل الاحساء ثم ميناء صحار ببلاد عمان .

وحبت الطبيعة الساحل العربي للخليج بمصدر هام من مصادر الثروة الطبيعية ، كان له بدوره أثر عظيم في عملية التنمية الاقتصادية على عهد العباسيين ، اذ اشتهر الخليج العربي بمغاص اللؤلؤ والتي انتشرت أيضا في اجزاء عديدة من المحيط الهندي .غير ان ساحل الخليج العربي عند البحرين أمتاز بانتاج اجود أنواع اللؤلؤ ، والذي تهافتت كل البلاد في الحصول عليه وبخاصة الصين بالشرق الاقصى .(١) اذ ارتكزت جزيرة البحرين على شط اللؤلؤ العظيم الذي يتألف من تكوينات جيرية من الشعاب المرجانية ، وتوجد على عمق قليل في مياه الخليج .(٢)

وكان العمل يجري بنشاط واهتمام من أجل استخراج اللؤلؤ في البحرين حيث كان لتجارة اللؤلؤ دور عظيم في بناء اقتصاد تلك النواحي .وكان الصيف هو الموسم الغوص على اللؤلؤ حيث يخرج الغواصون لذلك من أول ابريل الى اخر سبتمبر .وجرى استخراج اللؤلؤ على قاعدة هامة ، فكان التجار يؤجرون الغواصون شهرين ، ويدفعون لهم أجورهم بانتظام ، وفي بعض الاحيان يدفعون لهم مبالغ مقدما ، مقابل استغلال جهدهم . وكان الغواصون يلقون متاعب جمة ، لم تزل منذ اقدم العصور ، أهمها تعرضهم لاخطار البحر (٣) .

ووصف المسعودي حياة أولئك الغواصين على اللؤلؤ فأوضح انهم لا يتناولون شيئا

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد) ١٩٥٨ ، ج ١ ، ص ١٤٨

(٢) محمد متولي ، حوض الخليج العربي (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ٢٧٠

(٣) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

من اللحم الا السمك ، ويأكلون التمر ونحوه من الاقوات ، وتشق اصول اذانهم ليخرج منها النفس بدلا من المنخرين «لان المنخرين يجعل عليها شيء من الدبل وهو ظهور السلاحف البحرية التى تتخذ منها الامشاط ، او من القرن يضمها كالمشقاص لا من الخشب وومايجعل فى آذانهم من القطن فيه شيء من الدهن ، فيعصرون من ذلك الدهن اليسير فى الماء فى قعرة ، فتضيء لهم بذلك فى البحر ضياء بينا ، وأمايطلبون به أقدامهم وأسواقهم من السواد خوفا من بلع دواب البحر اياهم وبنفورهم من السواد وصياح الغاصة فى قعر البحر كالكلاب وخرق الصوت الماء فيسمع بعضهم صيحاح بعض .(١)

ووصف الرحالة الجغرافيون اهمية هذا اللؤلؤ وتجارته بالنسبة للبحرين، فقال عنها ناصري خسرو «والبحرين ايضا اسم لمدينة هامة، تحيط بها مزارع النخيل وتمارس عملية الغوص على اللؤلؤ فى بحر البحرين ، ونصف اللالىء التى يخرجها الغواصون تخص زعماء الاحساء، وكان اسطول الصين يخرج فى عدة مراكب تحمل الغواصين، ويتقدمهم القائد ، فاذا وجد شيئا القى مراسى سفينته ، والقى الاخرون مراسى سفنهم حوله ، ثم يستعد الغواصون بملابسهم . ويأخذ كل منهم سكينا ومخلاة، ويقعد على حجر مربوط فى حبل يمسكه المساعد به وينزل الى قرار البحر، واذا اشار أحد الغواصين بتحريك حبله جذبوه الى السطح (٢)

وكان اللولؤ يفرز بواسطة غرابيل ثلاثة متفاوته اتساع الخروق ، بعضها فوق بعض . وتعتبر احسن أنواع اللالىء المستديرة تمام الاستدارة . وقد اشتد الطلب على لولؤ البحرين زمن العباسيين لقلة ما كان يستخرج من النواحى الاخرى بالمحيط الهندى

---

(١) المسعودى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) متز ، نفس المرجع ، ص ٣٢٠

فضلا عن جودتها . وكثر تهريب اللؤلوء الى البحرين ،وحق ان التجار الاجانب الذين قصدوا الصين كان من عادتهم ان يخبئو اللؤلؤ فى بطائن ملابسم أو مقابض مظلاتهم، هربا من دفع المكوس. (١)

واشتهرت ولاية البحرين بنوع من الصناعات الوطنية البسيطة الى جانب تجارة اللؤلؤ وكان اهم تلك الصناعات هى صناعة نوع من من الفوط التى اشتهرت بها الاحساء،وزاد الطلب على فوط الاحساء ، وصارت تصدر الى البصرة بصفة خاصة ،حيث عاصمة ولاية عمان والبحرين. وجرت عملية الصفقات التجارية فى البحرين على نطاق واسع و وبمقادير كبيرة .وأعد من اجل ذلك قفاف (سلال او أكياس) تزن كل منها ٦٠٠٠ درهم،تعتبر الوحده التى يتم بمقتضاها البيع والشراء،فاذا ماتم الاتفاق على سلعة من السلع تقوم بما يعادل ثمنها من تلك القفاف.ولم يكن مسموحا بتصدير هذه النقود حفظا لموارد الولاية (٢)

واستطاعت عمان والبحرين أن تسهم بمقـــدار كبير فى دخل الدولة العباسية فذكر قدامه بن جعفر أن خراج هذه للقاطعة بلغ فى ميزانية سنة ٢٣٧ هـ/ حوالى ٥١٢٫٠٠٠ دينار(٣) . وشهد هذا المقدار على مدى الثراء الذى تدفق على ولاية عمان والبحرين ، إذ كان هذا الخراج هو الفائض عن حاجة للقاطعة بعد سداد نفقاتها ورواتب عمالها جريا على العادة التى سار عليها بيت المـــال المركزى فى الدولة الاسلاميه .

---

(١) متز ، نفس المرجع ، ص ٣٢٥ .
(٢) Wilson, op cit, P.88.09.
(٣) قدامه بن جعفر ، نبذه من كتاب الخراج (ليدن ١٨٧٩ ، ص ٢٤٩) .

مقاطعات الساحل الفارسى للخليج :

شهدت مقاطعات الساحل الفارسى للخليج تطوراً هاماً فى العصر العباسى أدى إلى دعم الطابع العربى للخليج ، وإعطائه الشخصية التى جعلته حريا أن يدعى باسم الخليج العربى . وكان قوام هـــذه الظاهرة هو استقرار القبائل العربية التى تدفقت منذ الفتح الاسلامى زمن الراشدين والامويين على بلاد فارس ، وتطور كثير من المعسكرات الحربية إلى أماكن دائمة ومدن زاهرة . وكانت هذه الظاهرة من أهم المميزات التى سادت الخليج العربى فى العصر العباسى ، وجعلته يدخـــل فى مرحلة جديدة من مراحل تاريخه ونشاطه . ذلك أن الفرس الساسانيين برغم سيادتهم أحيانا لبعض السواحل العربية للخليج ، لم يترتب عليه هجرة فارسية إلى تلك السواحل أو تغيير فى بنائها البشرى . ولـكن الهجرات العربية القديمة التى دأبت على الانتقال إلى الساحل الفارسى للخليج وجدت فى الفتوحات الاسلامية حافزا ودافعا ، وأخيرا وجدت فى العباسيين سندا وسبيلا للاستقرار واضفاء الطابع العربى بدوره على تلك السواحل الفارسية ، حتى غدا الخليج عربى الوجه واليد واللسان .

وكانت أهم خطوات العباسيين هو أنهم أتاحوا فى ظـل نظامهم الادارى السبيل أمام العرب للانتقال من حياة المعسكرات والفتوح إلى حياة التغلغل فى المدن والأشتغال بشتى الأعمال الزراعية والتجارية . وترتب على ذلك امتزاج العرب بأهالى مقاطعات الساحل الفارسى للخليج والاشتراك معا فى عجلة التنمية الاقتصاديه وبناء التـكامل الاقتصادى بين سائر أرجاء الخليج وبلدانه . فكان عصر العباسيين هو عصر الحضارة العربية وبناء أركانها وبخاصة فى الميدان الاقتصادى ، وخلق الوسائل التى تـكفل لجميـع ابناء الدولة على اختلاف أجناسهم التعاون فيما يحقق لهم الاطمئنان والاستقرار واقتسام أسباب الرزق عن عدالة فى التوزيع وكفاية فى الإنتاج .

الأهواز (خوزستان) :

وتجلت فى مقاطعة الأهواز أولى مظاهر هذا التطور الجديد فى الساحل الفارسى للخليج ، من حيث تعريبه وتنميـة موارده الاقتصادية . وتقع هذه المقاطعة شرق العراق ، حيث تتلاقى فى حدودها مع كورة واسط . وأطلت هذه الولاية على رقعة من الركن الشمالى الشرقى للخليج ، تمتد مياهها حتى ميـاه البصرة والأبله (١) ، واشتهرت تلك المقاطعة بزراعة قصب السكر وسميت من أجل ذلك باسم خوزستان(٢) ، أى ولاية القصب . غـير أن الاسم الذى شاع زمن العباسيون هو ولاية الاهواز نسبة إلى أكبر مدنها وهى التى اشتهرت بسوق الاهواز (٣) . إذ تدفقت القبـائل العربية على تلك المدينة وغيرها من مدن المقاطعـة ، وصارت مراكز استقرارها علما يميز تلك الولاية كلها . وأخيرا صارت تعرف باسم عربستان أى أرض العرب لكثرة القبائل العربية التى استقرت بها (٤) واتخذتها مأوى لها .

وساعد على تعريب الاهواز حتى اشتهرت باسم عربستان هو جوارها المباشر للعراق وسهـولة اتصالها بأرضه جغرافيا وبشريا واقتصاديا . ووصف الاصطخرى تلك المظاهر الجغرافية الطبيعية والبشرية قائلا : « وليس بجميع خوزستان جبـال ولا رمال إلا شىء يسـير . . . . والباقى من خوزستان كأنه أرض العراق . .

---

(١) بن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٢٥ ، لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٠٥

(٣) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣٨٠ .

(٤) على نعمه الحلو ، الأحواز (عربستان) بغداد ، ج ١ ، ص ٢١٧

وأما ترابها فان مابعد عن دجله إلى ناحيـة الشمال أيبس وأصح ، وما كان إلى دجلة أقرب فهو من جنس أرض البصرة فى التسبيخ ؟ وكذلك فى الصحـة ونقاء البشرة فى الناس . . وأما لسانهم فان عامتهم يتـكلمون بالفارسية والعربية . . وزيهم زى أهل العراق فى الملابس من القمص والطيالسة والعمائم [1] ».

وانتقلت القبائل العربية بذلك من العراق إلى أولى مقاطعات الساحل الفارسى بالخليج دون أن تجد فارقا جغرافيا أو بشريا ،فنلبث على تلك الأنحاء من الأهواز الأشجار من النخيل،ولأهلها « عامة الحبوب من الحنطة والشعير والباقلاء ، وأكثر حبوبها هو الحنطـة الشعير والأرز فيخرجونه ، وهولهم قوت ، وكذلك فى رستاق العراق . [2]» .

وقد لقيت الأهوازمن العباسيين نفس العناية التى لقيتها أرض السواد من حيث تنظيم وسائل الرى . وكان يجرى فى الأهواز نهر قارون الذى سمـاه المسلمون باسم دجيل،وكان الشبه بينه وبين دجـلة والفرات قويا من حيث جريان مياهه وانسيابها قرب للصب وضرورة الاهتمام به كوسيلة من وسائل الرى والمواصلات كذلك .

وحافظ العباسيون على تراث الساسانيين هناك من أجل النهوض بدجيل واستثمار الأراضى الزراعية حوله . وكان على هذا النهر مدينة تستر التى شيد عندها سابورسدا اشتهر باسم« الشاذروان » . وكان « امتداده بقرب من ميل قد بنى بالحجارة كله حتى تراجـع الماء فيه ، وارتفع إلى باب تستر » ذلك أن الهدف من هذا السد هو الحصول على المياه المختزنة خلفه للرى . ولذا أقيم خلف السد ثلاث قنوات عليها فتحات

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٢ — ٦٣.

(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ص ٦٣ .

لتنظيم تدفق المياه فيها إلى الأراضى الزراعية . وصارت المدينة بذلك محاطة بحدائق الأعناب والبرتقال والنخيل ، فضلا عن أن الأراضى صارت خصبة جدا « لدرجة أن كل ما تحتاجه الأرض هو حراثة على الجير وتنمو فيهـا الذرة والقطن وقصب السكر بشكل ممتاز أو تكاليف ذلك دائما رخيصة » (١) .

ويجرى من ناحية تسترنهر آخر عرف باسم المسرقان وصفه الاصطخرى قائلا : « تجرى فيه السفن العظام ، وقد ركبته أنا من عسكر مكرم إلى الاهواز ، والمسافة ثمانية فراسخ . فسرنا فى الماء ستـة فراسخ . . ولايصنع من هذا الماء شىء « وإنما تسقى به أراضى قصب السكر ومافى أضعافه من النخيل والزروع . وما بخوزستان كلها على كال عمارتها بقعة هى أعمر وأزكى من المسرقان (٢) » وقام إلى الجنوب من تستر على بعـد ستين ميلا تقريبا مدينة الاهواز التى اشتهرت باسم سوق الاهواز وإليها نسبت المقاطعة زمن العباسيين . واستمدت هـــذه المدينة شهرتها من موقعها الممتاز الذى جعلهـا مركزاً تتجمع به متاجر شتى أرجاء المقاطعة ، ثم تنقل منها بعد ذلك إلى التصدير وبخاصة إلى البصرة بالعراق . (٣)

وكانت صادرات الاهواز تـكشف عن قدر كبير من القيمة الاقتصادية فى شتى الميادين الزراعية والصناعيـــة . وقامت صناعة السكر على المنتجات الزراعية لهذه المقاطعة ، واشتهرت مدينـة جندريسابور بانتاجها من السكر الذى حمل إلى شتى البلاد (٤) . غير أن صنـاعة الحرير كانت من أقدم وأشهر الصناعات ببلاد الاهواز زمن العباسيين ، وتنقل من مدنها إلى سـائر الأرجاء . فاما تستر « فان بها يتخذ

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٤ — ٦٥
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ٦٢ — ٦٣
(٣) المقدسى ، نفس المرجع ، ٤١٠
(٤) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٣

الديباج الذى يحمل إلى الدنيا ، وكسوة مكة من الديباج يتخذ بها ، وبها للسلطان طراز . وأما السوس فانه تعمل بها الخزوز ومنها تحمل إلى الآفاق ... وبقرقوب السوسنجرد الذى يحمل إلى الآفاق (1) » .

وأشار الجغرافيون والرحالة إلى ظاهرة طريفة ، وهى أن صناعات كرمان اشتهرت بتهافت الأسواق عليها حتى لجأ الكثيرون إلى تقليدها ، أو وضع علامة مدن كرمان التجارية على بعض المنسوجات ، مثل صناعة مدينة كذا ، من باب التحايل وتصريف السلع . فقال الاصطخرى عن مدينة بصنى بالأهواز أنه تعمل بها الستور: « التى تحمل إلى الآفاق ، المكتوب عليها عمل بصنى ، وقد تعمل بيرذون وكيلوان وغيرهما من تلك المدن ستور يكتب عليها بصنى وتدلس فى ستور بصنى . . . . ونهر تيرى تكون بها ثياب تشبه ثياب بغداد ، وتحمل إلى بغداد فتدلس بالبغدادى وتقصر ببغداد(2) » وتشير عبارة الاصطخرى الاخيرة إلى التجاء أهل الأهواز بدورهم إلى تقليد صناعات العراق وأن التكامل الاقتصادى كان قائماً بين سلع كل منهما بطرق مشروعة وغير مشروعة كذلك .

وصارت الأهواز بذلك ، وهى أولى مقاطعات الساحل الفارسى ، حلقة وثيقة الاتصال ببلاد العراق ، وتكمل الروابط بين سائر بلدان الخليج على عصر العباسيين. ودعم هذه الروابط تسيير أسباب المواصلات بين الأهواز والعراق ، والعناية بالطرق المؤدية إلى كل منهما . واشهر من الاهواز إلى العراق طريقين عظيمين : أحدهما إلى البصرة ثم إلى بغداد ، والآخر إلى واسط ثم إلى بغداد . وحددت كتب الجغرافيين

---

(1) الاصطخرى ، نفس المراجع ج2 ، ص 64 . ابن حوقل ، نفس المرجع ص 231

(2) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص 64 .

والمسالك معالم هذين الطريقين(١) ، مما يدل على نشاط حركة التبـادل التجارى بين مقاطعات الخليج فى ظل الادارة العباسية وحزمها ويقظتها .

مقاطعـة فارس :

امتدت مقاطعة فارس من الأهواز شرقا ، وشغلت تقريبا كل الساحل الشرقى للخليج حتى مشارف مضيق هرمز(٢) . واشتهرت هـذه المقاطعة فى التاريخ بسعتها وثرائها وأنها مهـد الأكاسرة الذين أسسوا امبراطورية الفرس قبل الميلاد وبعده . وقد أطلق اليونان القدامى اسم هذه المقاطعة على جميع البلاد التى خضعت للاكاسرة ، وصارت علما على دولة الفرس لدى جيرانها وفى كتب التاريخ كذلك . غير أن أكاسرة الفرس حرصوا على الاهتمام بهذه المقاطعة والاقامة فى عاصمتها اصطخر يستمدون منها مقومات سلطانهم وقوتهم . ولـكن بقيام الفرس الساسانيين على العرش انتقلت العاصمة من اصطخر إلى المدائن على دجلة(٣) ، حيث صارت بلاد مابين النهرين هى قاعدة طريق الخليج العربى وحلقة الربط بين سـواحله الثلاث وما يطل عليها من منافذ تجارية .

وتابع أكاسرة الفرس الساسانيين من المدائن سياسة الاهتمام بمقاطعة فارس حيث حرص كل واحد منهم على جعلها مدداً يزودهم بالثراء ويعزز سلطانهم الجديد فى بلاد مابين النهرين . وتجـلى ذلك فى تقسيم تلك المقاطعـة إلى خمسة كور كبرى ، خص الأكاسرة كل منهـا بالمشاريع الزراعية والصناعية العظمى ، ووضعوا الانتاج الزراعى

---

(١) ابن خرداذبه ، نفس المرجع ، ص ٦٠ ، ٦١ .
ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٢ .
(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .
(٣) ارثر كرستيسن ، ايران فى عهد الساسانيين (ترجمة تيحى الخشاب) ص ٨٢ ، ١٠٥ .

والصناعي في خدمة تجارة تلك المقاطعة على الخليج[1] . وعندما أعتلى العباسيون العرش ورثوا هذا التراث الهام في مقاطعة فارس ، ولم يجدوا أمامهم من سبيل سوى الاحتفاظ بأوضاعها وتقسيمها الاداري كذلك ، ضمانا لاستمرار دورها كإحدى المقاطعات البحرية الكبرى على الخليج .

واحتفظت مقاطعة فارس بذلك بمقوماتها الاقتصادية على عهد العباسيين، وأخذت تنطلق مرة أخرى في ميدان الازدهار والتقدم الاقتصادي . وساعد على ماحفلت به من انطلاق وثاب في تلك الميدان ظاهرة استقرار القبائل العربية على نحو ماحدث طوال العصر العباسي على الساحل الفارسي للخليج ، وازدياد تعريبه وتحول مراكز الجيوش العربية بفارس إلى مدن زاهرة أيضا . ولقيت مقاطعة فارس اهتماما كبيراً من العباسيين بسبب طبيعة أرضها الجغرافية . فكانت تلك المقاطعة تمتد على ساحل الخليج امتدادا طوليا بسبب مزاحمة سلاسل جبال زاجروس لارضها ، حتى صارت مقاطعة فارس « بلد إلا وبه جبل ، أو يكون الجبل منه بحيث تراه إلا اليسير »[2] .

وفرضت هذه هذه الظاهرة الجغرافيه على القبائل العربية أن يتركز استقرارها على النطاق الساحلي لمقاطعة فارس وما جاوره من جهات معينة من سفوح الجبال . ذلك أن مقاطعة فارس انقسمت قسمين متباينين ، على نحو ما وصفها به الجغرافيون المسلمون ، وكما اتسم به فعلا مناخها ، القسم الأول الجنوبي فهو كما سماه الجغرافيون المسلمون « جروم » أي مناخ المناطق المدارية الحارة ، والقسم الثاني الشمالي فهو « صرود » أي المناخ البارد . « فأما الصرود فإن منها أماكن يبلغ من شدة البرد فيها ألا ينبت عندهم شيء من الفواكه سوى الزرع كالأرد ... وأما الجروم فان

---

(١) ابن حوقل . نفس المرجع ، ٢٣٦ .

(٢) اصطخري ، نفس المرجع ، ص ٦٧ .

بها ما يبلغ من شدة الحر فى الصيف الصائف ألا يثبت عندهم شىء من الطيور من شدة الحر (١) . وترتب على ذلك تركز استقرار العـــرب فى الجهات المعتدلة على الساحل لقربها من البحر، وكذلك فى الجهات الواقعة بين الجروم والصرود لاعتدال مناخها أيضا . وصارت جبال زاجروس تمثل الحد الذى وقفت عنده العروبة وتركت مقاطعة فارس الساحلية تدخل فى نطاق التعريب الذى استقرت مظاهره على امتداد الخليج زمن العباسيين .

وعلا شأن كثير من العرب الذين استقروا فى مقاطعة فارس ، وغدت لهم أسر عريقة ، ربطوا نسبها بالهجرات العربية قبل الإسلام إلى الساحل الفارسى للخليج، إمعاناً فى الاعتزاز بوطنهم الجديد وسلطانهم هناك . وامتزج أولئك العرب بالسكان المحليين فى مقاطعة فارس مما أتاح السبيل لـكثير من الأسر للفارســية أن تعتنق اللسان العربى وتشارك مع العرب المستوطنين فى دعم اقتصاد مقاطعتهم وتنميته باعتباره ملـكا مشتركا للجميع . وشرح الجغرافى الاصطخرى فى إسهاب هـــذه الظاهرة الهامة فقال :

« والعرب الذين توطنوا فارس وصاروا من أهلها . . . فنهم آل عمارة ويعرفون بآل الجلندى، ولهم مملـكة عريضة وضياع كثيرة وقلاع على البحـر بفارس متاخمة كرمان ويزعمون أن ملـكهم هناك قبل موسى عليه السلام . وأن الذى قال الله عز وجل (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) هو الجلندى . وهم قوم من أزد اليمن ولهم إلى يومنا هذا منعة وبأس وعدد . . وإليهم أرصاد البحر وعشور السفن . . . ومنهم آل أبى زهير المدينى ينسب إليهم ابن زهير ، وهم من سامة بن لؤى

(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٢
ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٥٢

ملوك ذلك السيف ، ولهم منعه وعـــدد . . . وجعفر بن أبى زهير الذى قال فيه الرشيد وقد وفد عليه فى ملوك فارس : لولا طرش به لاستوزرته . . . ومنهم آل حنظلة بن تميم من ولد عروة بن أدية الذين عبـروا من البحر إلى فارس فى أيام بنى أمية بعد قتل عروة بن أدية فسكنوا اصطخر ونواحيهاوملـكوا الأموال الـكثيرة والقرىالنفيسة . وكان منهم عمرو بن عيينة ، وبلغ من يساره أنه ابتاع بألف ألف درهم مصاحف فوقفها فى مدن الإسلام)[1] .

وترتب على انتشار العرب بفارس شيوع اللسان العربى والتدوين باللغة العربية حتى أن أهالى فارس المحليين احتاجوا إلى من يفسر لهم اللغـة الفهلوية التى دونت بها « كتب العجم وأيامهم ومكاتبات المجوس فيما بينهم »[2] ونبغ كثير من أهـل فارس فى اللغة العربية ، اشتهر منهم عبد الحميـد بن يحيى ، وعبد الله بن المقفع وكان فارسيا أقام بالبصرة ، وسيبويه « وكان مقيما بالبصرة ، ويقال أنه من أهل أصطخر فاقام بالبطرة . . وله (الـكتاب) المنسوب إليه فى النحو » واعتمد العباسيون على كثير من أهـل فارس فى إدارة دولتهم الجديدة لاجادتهم اللغة العربية وسائر فنون الأعمال الإدارية والسياسية . وشرح الاصطخرى هـذه الظاهرة الهامة فى تطور مقاطعة فارس فقال : « والفرس هم شحنـة دواوين الخلافة والعمال الذين بهم قوام السياسة ، من الوزارات وسائرعمال الدواوين ، منهم البرامكة وآل ذوى الرئاستين وإلى يومنا هذا من المادرائيين والفريابيين وسائر شحنة الخلافة من الأولاد الفرس وبفارس قوم يقال لهم أهل البيوتات ، يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين،منهم آل حبيب،وكان مشايخهم مدرك وأحمد والفضل بنو حبيب وأصلهم من كام فيروز ومنشؤهم

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٢

(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٠٣

شيراز ، قطنوها وتقلدوا الأعمال الجليلة الشريفة وكان المأمون الخليفة استدعى مدرك بن حبيب إلى بغداد للحساب وغيره من وجوه الخدمة ، وحظى عنده وقرأ عليه ومات ببغداد أيام المعتصم . وآل أبي صفية من موالي باهله ، منهم يحي وعبد الرحمن وعبد الله بنو محمد بن اسماعيل ، ناقلة توطنوا بها في زمان المأمون وتقلدوا أعمال الديوان بها . وأما آل المرزبان بن ازادية فانهم كانوا من أهل شيراز . فهؤلاء مع آخرين لم نذكرهم أهل بيوت يتوارثون هذه الأعمال » (١) .

وغدت شيراز عاصمة مقاطعة فارس مرآة لهذا التعريب الذى ساد تلك المقاطعة البحرية ، فكانت هذه المدينة فى الحد بين الجروم والصرود ، أى فى المنطقة المعتدلة بمقاطعة فارس ، والتى أحبها العرب . وكانت هذه المدينة معسكرا للمسلمين حين اتجهوا لفتح اصطخر ، وبناها القائد محمد بن القاسم بن أبى عقيل بن عم الحجاج. وسميت هذه المدينة بشيراز تشبيها لها بجوف الاسود ، وذلك أن عامة المير بتلك النواحى تحمل إليها ، ولا تحمل إلى مكان(٢) » وحافظ العباسيون على تلك المدينة وجعلوها عاصمة لمقاطعة فارس وعنوانا على العهد الجديد الذى ساد الساحل الفارسى للخليج . إذ تابع العباسيون سياسة الاهتمام بمقاطعة فارس وتنمية مواردها الاقتصادية وتشجيع حركة التجارة والملاحة بها . ونعمت مقاطعة فارس بعدد من من الأنهار التى تتدفق مياهها من الجبال إلى الخليج ، وعدد ابن حوقل تلك الأنهار قائلا : « وأما أنهارها الكبار التى تحمل السفن إذا اجريت منها فانها نهر طاب ونهر شيرين ونهر الشاذكان ونهر درخيد ونهر الخوبذان ونهر رسى ونهر سكار

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص٨٨

(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص١٤٥ ، ٢٥٦
المقدسى ، نفس المرجع ، ص٤١١

ونهر جرشيق ونهر كر ونهر فرداب ونهر برزه فهذه المعروفة المشهورة »(١) .

واستلزم الاستفادة من مياه تلك الأنهار الرى وبخاصة فى الجهات المرتفعة القريبة من الجبال نظاما خاصا فى بناء السدود والقناطر ، فكانت تعمل فى جوف الأرض قنوات معقودة عليها قناطر ، وقد يبلغ طول القنــوات خمسين كيلو مترا واحتاج هذا التنظيم إلى مهارة كبيرة ، فكان على القائمين أن يعالجوا الطبقات الأرضية التى يجرى عليها الماء ، كما كان عليهم أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلا يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده(٢). واشتهرت كور فارس بذلك بوفرة الإنتاج الزراعى وبخاصة منتجات كل من المناطق الحارة والباردة معا ، مثل النخيل والكروم والزيتون والجوز والأترج(٣) . وانتشرت فى مقاطعات فارس زراعــة الحدائق والزهور ، وعلا شأن بعض نواحيها مثل ناحية النوبند جان التى عاش بقربها شعب بوان « ويكون مقدار فرسخين قرى ومياها متصلة ، فقد غطت الأشجار القرى حتى لايكاد يراها الإنسان إلا أن يدخلها ، وهو أنزه شعب بفارس »(٤) .

واشتهرت مقاطعة فارس أيضا بكثرة المراعى على سفوح الجبال وسهولة انتقال الرعاة عليها صيفا إلى الجهات العليا ، وشتاءا إلى الجهــات السفلى.وتشابهت حياة أولئك الرعاة مع حياة البدو العرب ، حتى أنهم « دعوا الانتساب إلى أصول عربية . وأشار إلى ذلك ابن حوقل قائلا : عن مناطق أولئك الرعاة « ويخرج من الحى

---

(١) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٢) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢
(٣) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٣٤ .
(٤) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٤٨

ألف فارس وأكثر وأقل ينتجعون في الشتاء والصيف المراعي وللصائف والمشاتي ».
ويزعم ابن دريد أنهم من العرب، وأن أكثرهم من ولد كره بن مرد بن عمرو بن عامر في حماسته . وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ممن يستبطن علوم العرب واخبارها يحتج بقوله ويسلم له ما يدعيه من هذا الباب وغيره »(١) .

ونعمت أرض فارس بثروة معدنية أضافت إلى بهائها الزراعى والرعوى. وعدد الاصطخرى أنواع تلك المعادن ، فذكر « ويكون بأرض فارس عامة المعادن من الفضة والحديد والانك والكبريت والنفط ، وأشباه ذلك مما يستقل به أهلها عما يكون في سائر الأقطار . إلا أن الفضة بها قليلة بناحية يزد بموضع يعرف بنائين ولا أعرف بها معدن الذهب . ومعدن الصفر بالسردان يحمل منها إلى البصرة وسائر النواحي والحديد يرتفع من جبال اصطخر ، وبقرية من كورة اصطخر تعرف بدارا بجرد معدن الزئبق(٢) » .

وقامت على هذه الثروة الزراعية والطبيعية نهضة صناعية باهرة في مقاطعة فارس جعلت من الساحل الفارسى للخليج مصدرا هاما من مصادر التجارة الإسلامية على عهد العباسيين . واشتهرت مقاطعة فارس بمراكز صناعة المنسوجات من الكتان وصناعة البسط وصناعة الروائح العطرية . واشتهرت مدينة كازرون بصنع ثياب الكتان حتى أنها كانت تسمى « دمياط الأعاجم » لاستيرادها الكتان من مصر أحياناً

(١) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٤٠
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٣
(٣) ابن حوقل، نفس المرجع، ص ٢٦٢

ولطريقة صبغه من هذه أيضا[1] . ولم تلبث كازرون أن صارت مركزا هاما لهذه الصناعة وتجارتها كذلك ، بفضل صلاحية البيئة المجاورة لها من مياه الأنهار . فكان الكتان يبل فى البرك القريبة من المدينة ثم يفصل بعضه عن بعض ويغزل . ثم يغسل خيوطه فى ماء نهر الرهبان ، وماء هذا النهر وإن كان قليلا شحيحا فإن له خاصية بتبييض خيوط الكتان ، مع أنها لا تبيض فى غيره من الماء[2] .

وارتبط بتلك الصناعة نشاط تجارى عند أهل كازرون . وتولى تلك التجارة جماعة من السماسرة يأخذون الأقمشة ، ويختمون اللفائف قبل تسليمها التجار الأجانب وكان هؤلاء التجار يثقون بالسماسرة ، ويشترون اللفائف من غير أن يفكوا حبالها ، بل يأخذونها كما هى . وكانت إذا وصلت اللفائف إلى أى بلد اعتراها التجار من غير أن يفتحوها واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السمسار بكازرون . وكثيرا ما كان يحدث أن ينتقل الحمل من لفائف كازرون ، حتى تتداوله عشر أيد ، من غير أن يفك وثاقه[3] .

وعلا شأن مقاطعة فارس فى إنتاج الفرش الصوفية ومنافستها لغيرها من تلك الصناعة بالأقاليم الأخرى . وكان أحسن البسط الفارسية يصنع فى مدينة سوسنجرد حتى صار أهلها وأعمالهم نماذج يحتذيها سائر المشتغلين بتلك الصناعة . وعزز صناعة البسط أشتهار سوسنجرد أيضا بالمهارة فى الجمع بين الصوف وخيوط الكتان فى النسيج وتجميل كل ذلك بالوشى . وحاولت بعض مدن العراق مثل قرقوب

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٢ ، المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٣٣ .

(٢) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ ، ٣٤٩ .

(٣) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٤٩

تقليد صناعة سوسنجرد ، ولكن هذه المدينة ظلت محتفظة بتفوقها الصناعى كما قال الاصطخرى « لأن القرقوبى ابريسم ، وهذا صوف ، والصوف أجود من الابريسم فى الصنعة »(١) .

وراجت فى مدن مقاطعة فارس صناعة روائح العطر ، والادهان . « فأما ما يرتفع من بلدان فارس مما ينقــل إلى الأمصار ، وما يفضل فى جنسه على سائر مايرتفع فى البلدان فمن ذلك ماء الوردالذى يرتفع من جور ، فإنه يفضل فى جنسه ، وينقل إلى البحر فيفرق فى الحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب وخوزستان والجبال ويرتفع من زجور ما هو أجود إلا أن معظم الجهــاز منه . ويرتفع بجور ماء الطلع وماء النيصوم الذى لا نعرفه فى بلد غير جور ، وماء الزعفران الموس وماء الخلاف الذى يفضــل على جسة فى سائر البلدان واختصت سابور بصناعة الأدهان وتصديرها كذلك إلى سائر الجهات واشتداد الإقبال عليها (٢) .

وانتقل الانتــاج الزراعى والصناعى من مدن فارس وكورها برا وبحرا إلى سائر بلدان الخليــج ، وتدفقت بصــــفة خاصة على بلاد العراق ، حيث كان نصيب الخلافة مثلا من ماء الورد قدراً هائلا ، سجلته قوائم الخراج على عهــد العباسيين وساعد على نشاط التجارة استتباب الأمن على امتداد الطرق وتوافر الراحة أيضا . ووضع العبــاسيون نظاما لذلك ، فــكان على سائر النواحى بفــارس عمــال « الزموا اقامة البزرقة (٣) القوافل وحفــظ الطرق »(٤) وكان أهل القرى بفــارس يختــارون

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٢
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٣ .
(٣) البزرقه ، هى الخفارة والحراسه .
(٤) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٧١ .

من بينهم رجلا مهمته توزيع الصوف على أهل القرية ، وكانوا يسمونه الحرير ، كما اشتهر نفر من كبار رجال بيوتاتهم باقامة الربط وإعداد أناس بها العمل على راحة المسافرين من التجار . واشتهر أهل فارس بذلك بالتفوق فى ميدان التجارة على عهد العباسيين وتقلد أعنة مقاليد الشئون الاقتصادية فى شتى النواحى ، « وقد اعطوا من ذلك ، كما قال الاصطخرى « حظا جزيلا حتى أن أحدهم ايبلغ ملكه . وهم أهل صبر على الغربة وحرص على جمع المال ، وفيهم اليسار ظاهرا حيثما كانوا ، وما علمت مدينة فى بر ولا بحر فيهـا قوم من الفرس مقيمون إلا وهم عيون تلك المدينة ، والغالب عليهم اليسار واستقامة الحال والعفة »(١) .

مقاطعة كرمان :

قامت هذه المقاطعة عند الطرف الجنوبى للساحل الفارسى للخليج إلى الشرق عن مقاطعة فارس . وعلا شأن كرمان بسبب موقعها الجغرافى الممتاز على المدخل الجنوبى للخليج ، وطبيعة التضاريس الأرضية هناك . ففى أرض كرمان يتأثر امتداد سلسلة جبال زاجروس ببعض التغيرات ، تجعلها تبعج إلى الشمال ، بحيث تتسع التقويس كبير من الساحل يمتد بدوره إلى مسافات عميقة بالداخل . وهذا التقويس الساحلى لكرمان يختلف بذلك عن التقويس الجنوبى لمقاطعة فارس ، بحيث صار تقويس كرمان صالحا لنمو الموانى الهامة وسيطرتها على التجارة والملاحة بالخليج العربى . ووصف الجغرافيون المسلمون هذه الظاهرة لأرض كرمان بأنها عبارة عن امتداد فى حد فارس « مثل الكم ، ومما يلى البحر لها تقويس »(٢) .

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٤ .

(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٣ .

وزاد في أهمية جداً « العكر » أو الدخلة الأرضية لساحل كرمان وجود بعض الممرات في النطاق الجبلي ، أتاح الاتصال المتين بين الساحل وداخل البلاد . وغدت كرمان تنعم بموقع برى على الطريق إلى بلاد السند خلال ممر بولان ، وذلك فضلا عن إشرافها على الطريق البحرى ، وأضفت الطبيعه أخيراً مزاياها على كرمان حيث جعلت جزءاً من ساحل عمان ينطلق كالسهم نحوها على هيئة شبه جزيرة مسندم وخلقت بالتالي في جوف التقوس الساحلي لكرمان مضيقاً بحرياً هاماً ، اشتهر باسم أكبر مدن كرمان وهو مضيق هرموز ، وهيأ هذا المضيق لكرمان التحكم في الملاحة بين كل من الخليج الفارسي وخليج عمان ، والمساهمة في نفس الوقت مع عمان في تقوية حلقة للواصلات البحرية مع الساحل العربي للخليج[1] .

وصارت كرمان بذلك وثيقة الصلة ببلاد العرب ، ولقيت بدورها الكثير من الهجرات العربية التي انطلقت في سهولة ويسر من عمان عبر رأس مسندم ، ودعمت مظاهر التعريب على الساحل الفارسي للخليج . وتركت هذه الهجرات العربية التي استقرت بدورها زمن العباسيين أسماءها على جهات عديدة من كرمان وبخاصة على بعض الجزر القريبة من الساحل ، مثل جزيرة قيس ، التي يتفق اسمها مع اسم من الأسماء العربية الشائعة . وشاهد العصر العباسي تطوراً هاماً أيضاً في حياة سكان كرمان الأصليين ، إذ ظلوا على « المجوسية أيام بنى أمية كلها . . . فلما ولى الأمر بنو العباس أسلموا » [2] وصار السبيل مفتوحاً أمامهم للمساهمة في إدارة بلادهم والدولة العباسية كذلك .

واختصت كرمان بسبب طبيعتها الجغرافية بموارد طبيعية عديدة ، كان لها شأنه

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٩ .

عظيم فى التنمية الاقتصادية على عهد العباسيين . فجمعت بعض أنحائها بين منتجات الجروم (الجهات الحارة) والصروه (الجهات الباردة) . ولكن كرمان اشتهرت بمنتجات خاصة بها وهى زراعة شجر النيل الذى يستخدم فى صناعة اللون الأزرق ، وصدرت كميات كبيرة منه إلى الهند والعراق ، وكذلك ازدهرت كرمان بزراعة السكون الذى « يحمل منها إلى الآفاق » . وأسهمت كرمان بدورها فى إنتاج التمر الذى صار أحد الغلات الرئيسية ببلدان الخليج العربى كلها . وكثرت التمور فى تلك المقاطعة حتى إن أصحابها لم يمنعوا أحداً من الحصول على ما يريدون . فكانت لهم سنة حسنة ، لا يرفعون من تمورهم ما أسقطه الريح ، فيأخذه غير أربابه ، وربما كثرت الرياح فيصير إلى الضعفاء من التمور فى المقاطعة إياها أكثر مما يصير للأرباب . واتبع أهل كرمان أسلوباً تجارياً فريداً فى تشجيع تجارة التمور الخاصة ببلدهم لم يعرف فى جهة أخرى من جهات الخليج ، إذا أعطوا الجمالين لنقل التمر إلى خراسان مضاعفة تشجيعاً لهم ، وضماناً لزيادة الدخل . ومن ثم قصد كرمان كل سنة مائة ألف جمل : « يحملونها على خفة وكثرة الزنا والفساد فى هذه القوافل »(١) .

وكانت ظاهرة اشتداد الرياح على كرمان ، وإسقاطها التمر سبيلا دفع الأهالى إلى الإفادة منها فى خلق نهضة صناعية قوية ، فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها وبخاصة زمن اشتداد تلك الرياح ابتداء من منتصف يونيو إلى نهاية شهر أغسطس. وكان للرحى الواحدة ثمانية أجنحة ، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودى أيضاً ، طرفه الأسفل يحرك حجراً ، فيدور هذا الحجر على حجر آخر . وزودت هذه الأرحاء بمنافس تغلق وتفتح حسب الحاجة .

(١) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٦٩ .

واشتهرت كرمان بصناعة « الفانيذ » وهو نوع من السكر الأبيض ، وصدرت منه كميات كبيرة إلى جيرانها . وأسهمت مدورها كذلك في استخراج الحديد والفضة ، حيث توافر هذان المعدنان في أرضها . على أن شهرة كرمان الصناعية بلغت أوجها في صناعة المنسوجات التي شاعت أيضاً في سائر بلدان الخليج العربي . وكان لا بد من قيام تنافس بين سائر تلك البلدان ، ومحاولة كل منها أن تتميز بنوع معين من تلك الصناعة . واشتهرت مدينة بم بشرق كرمان بصناعة الثياب القطنية الفاخرة والتي كانت محببة إلى الناس لملاءمتها الجو الحار . « وكان من طرائف ما يعمل فيها الطيالسة المقورة التي تنسج بزفارف ، يبلغ الطيلسان منها المشرب الرفيع ثلاثين ديناراً . وكانت تحمل إلى أقطار الأرض وتباع بخراسان والعراق ومصر »[1] . وغدت ثياب بم تتفوق على ماجاورها من صناعات البلاد الأخرى وبخاصة مدينة مرو التي كان يصنع فيها نوع من الثياب القطنية « لا يمكن أن يلبس لثقله وغلظه ، ولذلك يسميه المتنبي لباس القرود . ويقول أبو القاسم لقوم يهجوهم : « على أبدانكم ثياب بغت ، خشن ، مروى ، غليظ ، من غزل البيت ، طاقة ضرطة ، وغزول مطابقة ، منها قمصانكم ومنها عمائمكم »[2] .

وصارت مقاطعة كرمان تسهم مع سائر مقاطعات الخليج العربي في إنتاج المنسوجات الجيدة وتضع مواردها كذلك في خدمة التكامل الاقتصادي لبلدان الخليج . ونالت مقاطعات الساحل الفارسي للخليج شهرة فائقة زمن العباسيين حيث صارت تدعى « خزانة العراق » لكثرة واردات العراق من هناك . وتحقق لبلدان الخليج العربي على عهد العباسيين رخاء اقتصادى صار نموذجاً للحضارة الإسلامية ورفاهية أهلها مادياً ومعنوياً إذ اقترن رأس المال في بلدان الخليج

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٩ ، ١٠٠
(٢) متز ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٣٥١

باستثماره فى ميـدان الزراعة والصناعة ولتشجيـع حركة التجارة . ونجم عن ذلك اشتغال كبار التجار وأصحاب الصناعات فى بلدان الخليـج بتجارة الترف والنعيم (الـكماليات) التى تنهض دليلا على أن أهلها تخطوا مرحلة الضروريات إلى مرحلة الحياة الرغدة الهنية . وتردد صدى هـــذه الحقيقة فى كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين جابوا بلاد الدولة الإسلامية . فينصـــح المقدسى بنصيحة يعرف بها الإنسان خفة ماء بلد أو ثقله فيقول : إذا أردت أن تعرف خفـة ماء بلد ، فاذهب إلى البزازين والعطارين ، فتصفح وجوههم فإن رأيت فيها الماء فاعلم أن خفته على قدر ماترى من نضارتهم. أما إن رأيتها كوجوه الموتى ورأيتهم مطأطئ الرؤس فعجل الخروج منها » فالمقدسى يعتبر أن أقرب التجار إلى الترف والنعيم هم البزازون والعطارون ، وهم طبقة كثر انتشارها فى بلدان الخليـج العربى نتيجة التنمية الاقتصادية التى سادت تلك البلدان على عهد العباسيين .

وسجلت لغة الأرقام مـدى رفاهية بلدان الخليـج ونشاطها الاقتصادى زمن العباسيين . إذا أوضحت قوائم الخراج التى جاءت عن العصر العباسى أن بلدان الخليـج العربى أسهمت بنصيب وافر فى بناء ميزانية الدولة العباسية وتلك القوائم أربعة وهى : ١ ـــ قائمة الجهشيارى فى كتابة « الوزراء والـكتاب » ٢ ـــ قائمة ابن خلدون فى مقدمته ـــ ٣ ـــ قائمـة قدامة بن جعفر فى كتابه « الخراج » ٤ ـــ قائمة ابن خرداذبه فى كتابه « المسالك والممالك » فغدت « هذه كلها وثائق تاريخية نادرة ، وهى تبين حالات الخراج بالتفصيل فى مدى نحـو نصف قرن من عهد الرشيد إلى عهد الواثق أو المتوكل »[1] .

---

(١) ضياء الدين الريس ، الخراج ، ص٥٠٩ ، ٥١٠ .

وتتطابق قائمة الجهشيارى مع قائمة ابن خلدون فى بيانها لدخل الدولة العباسية زمن الخليفة هارون الرشيد(١) . وكان نصيب بلدان الخليج العربى فى الخراج العام أو دخل الدولة العباسية إذ ذاك كما يلى :

---

(١) ناقش الدكتور الريس فى كتابه الخراج كلا من قائمة الجهشيارى وابن خلدون وأثبت أنهما ترجعان إلى عهد الرشيد ، وفند الأخطاء التى وقع فيهـا المؤرخون الذين نقلوا عن هاتين القائمتين . واعتمدت لذلك على النتيجة التى وصل إليها الدكتور الريس فى بحثه القيم ، وأثبت عنه الجدول المذكور إلى أعلى بالمتن عن مقدار خراج مقاطعات الخليج العربى . أنظر الريس . الخراج ص ١١٥ .

اسم المقاطعة		مقدار الجباية من الأموال		الأمتعة والعروض
١ — اثمان غلات «السواد» ...	٧٨٠	٨٠ درهم		
٢ — أبواب المال بالسواد	...	٨٠٠	١٤ درهم	الحلل التيجرانية ٢٠٠ حلة الطين المختم : ٢٤٠ رطلا.
٣ — كور دجلة	...	٨٠٠	٢٠ درهم	
٤ — الأهواز	...	...	٢٥ درهم	السكر: ٣٠ ألف رطل
٥ — فارس	...	...	٢٧ درهم	ماء الزبيب الأسود ٢٠ ألف رطل الانبيقات: ١٥ ألف رطل الطين السرافى ٥٠ ألف رطل . الزبيب بالكسر الماشى ٣ أكرار
٦ — كرمان	...	٢٠٠	٤ درهم	المتاع اليمنى والصينى ٥٠٠ ثوب التمر ٢٠ ألف رطل الكمون ١٠٠ رطل

وتتقارب قائمة قدامة التى جاءت فى كتابه « الخراج » مع قائمة ابن خرداذبه عن دخل الدولة العباسية[1] ، سواء من حيث الزمن أو المقادير المبينة منها ، فكل منهما تشير إلى خراج الدولة زمن الخليفة المأمون وأوائل عهد الخليفة

(١) الريس ، الخراج ، ص ٢٥٨ ، ٣٤٢

المعتصم[1] ويتضح منهما أن نصيب مقاطعات الخليج العربى فى خراج الدولة العباسية كان على النحو التالى :

اسم الإقليم	مقدار الجباية بالدراهم			
١ — السواد	٦٥٠	٤٥٧	١٤ درهم	
٢ — الأهواز	٠٠٠	٠٠٠	٢٣ درهم	
٣ — فارس	٠٠٠	٠٠٠	٢٤ درهم	
٤ — كرمان	٠٠٠	٠٠٠	٦ درهم	
٥ — اليمامة والبحرين	٠٠٠	١٥٠	درهم	
٦ — عمان	٠٠٠	٣٠٠	درهم	

ويتضح من استعراض قوائم الخراج السالفة الذكر على عهد العباسيين أن التنمية الاقتصادية لبلدان الخليج العربى خلقت رأس مال ضخم أتاح للاهالى استثماره فى ميدان التجارة العالمية والسيطرة على مقاليدها، فظهرت طبقة هامة من كبار التجار من ابناء الخليج العربى استطاعوا بثرائهم بث الثقة فى المعاملات التجارية وتحويل نشاطها إلى الطريق الذى تطل عليه بلادهم ،ذلك أن التجارة تقترن دائما فى نشاطها برأس المال ولا تزدهر إلا فى ظل حمايته وقوته .

---

(١) وازن الدكتور الريس بين هاتين القائمتين فى كتابه الخراج ، ودرس الأرقام التى وردت فى كلا منهما وبخاصة عن إقليم « السواد » وخرج بنتائج أثبتها فى الجدول الذى أنقله عنه فيما يتعلق بخراج بلدان الخليج العربى ، على النحو المثبت بالمتن إلى أعلى .

أنظر الريس » الخراج ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

وترتب على هذه الظاهرة الجديدة في بلدان الخليج انقلاب هام في الأحوال الاقتصادية للدولة العباسية وطريق الخليج العربي كذلك . إذ أصبح التاجر الغني هو ممثل الحضارة الإسلامية التي صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة في ذلك . وكان تجار الخليج العربي هم القادرون على توفير تلك المطالب المادية وجلب كل مقوماتها من شتى مصادرها العالمية . ومن ثم غدت تجارة الخليج العربي في العصر العباسي من مظاهر أبهة الإسلام ، كما صارت هي السيدة في بلادها وبلاد العالم المجاور كذلك . فكانت سفن أبناء الخليج وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، حيث مصادر التجارة العالمية وأسواقها كذلك ، وجعلت الدولة الإسلامية هي المتقلدة لأعنة تلك التجارة العالمية والهيمنة على تصريفها وتوزيعها(١) بما يحقق العالم المعروف إذ ذاك شرقا وغربا الرفاهية والطمأنينة والاستقرار .

---

(١) راجع قائمة المتاجر الخاصة بهذا النشاط في كتاب :

HUZAYYIN, Arabia and the Far East (CAIRO 1942) p. 189-214.